

تَطَوُّرُ الرُّوحِيِّ الْإِسْلَامِيِّ

هِنَّ سَعَتِ نَفْوَذِ اللِّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ

د. استاذ زكريا البري

رئيس قسم الشريعة والدراسات
الإسلامية (جامعة الكويت)

والاجتماعية والسياسية . فان اللغة الواحدة - كما يقول أحد الفلاسفة الالمان - تجعل من الناطقين بها كلاما متراسا خاضعا لقوانين ، اذ انها الرابطة الوحيدة الحقيقية بين عالم الاجسام وعالم الازهان .

ومن هنا كانت قراءة القرآن العربي ركنا من اركان الصلاة ، وهي عماد الدين ، بحيث يجب على كل مسلم حفظ آيات منه ، يؤدي بها صلاته ، وكانت تلاوة القرآن في ذاتها طاعة وعبادة .

وبجانب هذا وضع الفقهاء اللغة العربية في مرتبة دينية خاصة ، حيث ذهب بعضهم الى عدم صحة عقد الزواج ممن يتكلم العربية الا بالفاظ عربية معينة لا يغني عنها غيرها من اللغات ، بل زاد بعضهم وطالب من لا يعرف العربية بتعلمها ما دام قادرا حتى يكون الزواج صحيحا .

لهذا ولغيره كانت العربية هي لغة الاسلام ، ولسان المسلمين ، وكان تعلمها أمرا مطلوبا ، ينبغي على كل مسلم - مهما كان جنسه وبلده - المبادرة اليه بقدر طاقته ووسعه ، حتى يؤدي الشعائر الدينية اداء صحيحا كاملا ، وحتى يزداد معرفة بالاسلام ، بالرجوع الى مصادره السماوية العربية الطاهرة .

1 - اختار الله سبحانه العرب ليكونوا حملة الاسلام الى جميع شعوب الدنيا ، واصطفى من بينهم محمدا - عليه الصلاة والسلام - فبعثه اليهم رسولا من انفسهم ، و « الله اعلم حيث يجعل رسالته » وكذلك جعلناكم امة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا .

وانزل الله تعالى القرآن بلسان عربي مبين ، وتولى الرسول بيانه باللسنة النبوية العربية ، « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » .

وتلقى عنه صحابته - رضوان الله عليهم - هذا وذاك ، و اضافوا اليهما اجتهاداتهم وتطبيقاتهم ، وحملوا ذلك الى جميع الامم والاجيال من بعدهم ، ترانا عربيا ، محفوظا في الصدور ، أو مكتوبا في السطور .

وكان من الحكمة الالهية في انزال القرآن بلغة واحدة ، هي اللغة العربية ، مع أن رسالة الاسلام عامة لجميع الناس والاجناس - أن يلتقي المسلمون - مهما اختلفت لغاتهم وشعوبهم على لغة واحدة ، هي اللغة العربية ، التي حملت اليهم وحي السماء وهدايتها ، وفي ذلك تحقيق وحدتهم اللسانية والفكرية

وقد أدى ذلك الى انتشار اللغة العربية بانتشار الاسلام ، تسير معه وفي ظله ، أينما سار ، وكانت لها النغلة إلا في احوال خاصة ، وقفت فيها رواسب الشعوبية حائلا بين بعض المسلمين ولغة الاسلام . فانحصرت اللغة العربية - حينئذ - في ساحة المسجد والدراسة الدينية ، تؤدي بها الصلاة وشعائرها ، ويخطب بها في يوم الجمعة ، ويتعلمها من يعدون أنفسهم للتفقه في الدين ، وانذار قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون .

وقد كانت مصر احدى البلاد التي انتشرت فيها اللغة العربية تدريجيا خلال القرون الثلاثة الاولى للهجرة ، حتى اذا ما جاء القرن الرابع كانت اقلية شعبا قد تركت اللغة اليونانية - كلفة للدواوين - واللغة القبطية - كلفة للحديث الى اللغة العربية ، التي اضطر رجال الكنيسة في هذا القرن الى ان يلقوا مواظهم في الكنائس بها ، بعد ان أصبحت هي اللغة السائدة بين الافراد ، لا فرق بين مسلم وغيره .

2 - وكلما زادت المعرفة باللغة العربية زاد الوعي الاسلامي السليم ، والمعرفة الصحيحة لاصول الاسلام وفروعه ، واحكامه واهدافه ، حيث تؤخذ من منابعها الاصلية - قرءانا كريما وسنة نبوية - دون ان يدخلها تحريف او تاويل .

اما الوازع الديني فانه لا يرتبط باللغة العربية ارتباط الوعي الاسلامي بها ، لان هناك عوامل اخرى تؤثر في وجوده ويقظته أيضا ، ومن ذلك اساليب التربية ، والتقاليد الاجتماعية ، والاسوة التي يجدها المسلمون في أئمتهم وقادتهم من الحكام والعلماء ، ومقدار العناية بالرد على الدعوات الالحادية ، والتيارات المعادية للاسلام .

3 - واللغة العربية تحتل في بلدي مصر ، وفي الكويت بلد الجامعة ، المكانة الاولى . وتنص المادة الثالثة من الدستور الكويتي على أن « لغة الدولة الرسمية هي اللغة العربية » .

وينبغي للبلاد العربية - بصفة خاصة - ان تعنى باللغة العربية العناية الكاملة حتى تكون لها - دون غيرها - السيادة كاملة في بلادها : رسميا وثقافيا وشعبيا ، بحيث تصبح وسيلة الكتابة والتخاطب ، لا يعدل عنها الا للضرورة .

ومع ان معرفة اللغات الاجنبية مطلوبة بمقدار الحاجة اليها ، بل انها من الفروض الاسلامية الكفائية الواجبة في المجتمع الاسلامي وفي حدود المصلحة ، فانه ينبغي الا يكون تعلمها على حساب اللغة العربية .

وقد بذل الاستعمار جهودا كبيرة في التمكين للغة ، والتضييق على اللغة العربية ، ونجح في ذلك بنسب متفاوتة في بعض البلاد ، ولم ينجح في بعضها الآخر . وكان للازهر - جامع الاسلام وجامعته - الفضل الاكبر في هذا المجال .

وفي المكانة الاسلامية للغة العربية يقول الثعالبي: « من احب الله تعالى احب رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - ومن احب الرسول العربي احب العرب ، ومن احب العرب احب العربية ، ومن احب العربية عني بها ، وثابر عليها ، وصرف همهته اليها . ومن هداه الله للاسلام ... اعتقد ان محمدا - صلى الله عليه وسلم - خير الرسل ... والعربية خير اللغات ، وان الاقبال على تفهمها من الدين ، اذ هي اداة العلم ، ومفتاح التفقه في الدين ، وسبب اصلاح المعاش والمعاد ، ولو لم يكن في الاحاطة بخصائصها .. الا قوة اليقين ، في معرفة اعجاز القرءان ، وزيادة البصيرة في اثبات النبوة ، التي هي عمدة الاديان ، لكفى بها فضلا يحسن اثره ، ويطيب في الدارين ثمره » .

ويقول الفقيه ابن تيمية : « ويكره التخاطب والتعاقد بغير العربية لغير حاجة » ، وقد روى عن مالك والشافعي واحمد ما يدل على كراهية اعتياد المخاطبة بغير العربية لغير حاجة » . ويروي الاصمعي انه كان مما يخل بالمروءة في عصره التكلم في مصر عربي باللغة الفارسية .

واللغة العربية لغة سهلة ليس فيها صعوبة غيرها من اللغات ، والصعوبة التي يلصقها بها بعض أهلها وغيرهم ، سببها عدم العناية بدراستها ومعرفتها كما عنا بغيرها .

وقد نشرت الصحف المصرية أن أستاذا بجامعة السوربون كتب في صحيفة الموند الفرنسية ، يدعو الى تدريس اللغة العربية في المدارس الفرنسية ، قائلا انها سهلة ، واسهل ما فيها كتابتها من اليمين الى اليسار ، وهذا هو الاصل في الكتابة .